

التصاهر بين الشـــــــــــــــــعوب

للاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

بعض علماء الاجتماع لا يقول بوجود اختيار الزوج فقط، بل يذهب أبعد من ذلك ويقول بوجود التصاهرين الشعوب المختلفة بدون تعصب للوطنية، ولم يقولوا بذلك إلا بعد التجارب المختلفة التي عملوها على النباتات والحيوانات، فظهر لهم أن الاختيار الصناعي يؤدي إلى تحسين النباتات والأزهار والفواكه، فلم يروا بأساً من تطبيق النتائج التي وصلوا إليها على النوع الانساني، وليس هناك من مجال يتسع للقيام بتلك التجارب أفسح من أمريكا حيث توجد عناصر مختلفة تحدث بينها مصاهرة. وقد قال لوثر بيربانك العالم الأمريكي الاجتماعي في كتابه المسمى « تربية النبات الانساني »: « إن مقدرة الرجال يمكن تنميتها وإدخال التحسين عليها بالطرق التي اتبعت في تحسين النباتات والحيوانات » .

ولست هذه الفكرة وليدة اليوم، فإن أفلاطون لاحظ أن كرام الخيل وأعلى فصائل الكلاب إذا اتبعت في تربيتها طريقة الاختيار الصناعي تتحسن أنواعها وتنجب نسلا أقوى وأجود نوعا من نسلها لو لم يحصل ذلك الاختيار، وقد وضع في كتابه الخالد المسمى (الجمهورية) قوانين يتوصل بها إلى ترقية النوع الانساني، وهذه القوانين تقتضى التدخل في الزواج وضبط شؤونه . ولكن هذه التجارب التي أجريت على الحيوانات والنباتات في الاسطبلات وفي الحقول لا يمكن إجراؤها على أفراد النوع الانساني بنجاح تام، وذلك لوجود صعوبات كثيرة أهمها:—

١ — إن حياة النبات والحيوان بسيطة ساذجة عمادها الاعمال العكسية والفرزية، فمن السهل جدا التحكم فيها، ومن الممكن تكيفها بالطرق التي يرى المربيون سدادها، أما حياة الانسان فمعقدة، عمادها الاعمال الارادية، وميول الانسان ورغباته لا تكاد تحصى، فمن المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يحصل المربيون على رجال ونساء يستسلمون لاجراء التجارب عليهم وهم ساكنون لا يبدون حراكا، والمربيون إن نجحوا في إيجاد عدد ما، فانهم لن ينجحوا في التحكم في جميع أفراد النوع الانساني كما يريدون .

٢ — إن المرين للنبات والحيوان لكي يتمكنوا من تحسين انواعها وإبقاء الصالح منها فقط، فلا بد لهم أن يقضوا على حجر الصالح كيلا يكون حجر عثرة في سبيل تحسين غيره، ولكي يتسنى للمرين التفرغ للأفراد الصالحة والعناية بتحسينها.

ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للإنسان، إذ أن المصلحين الاجتماعيين لم يجرؤوا بعد على أن يقولوا بوجوب القضاء على غير الصالح من أفراد النوع الانساني، وإننا إذا كنا نسمع من يقول بوجوب عمل ذلك مساعدة للطبيعة، ومراعاة لقانون النشوء الذي يقضى بفناء غير الصالح وبقاء الأصلح في تنازع البقاء، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج حتى الآن إلى حيز الفعل . بل إننا نجد الجمعيات الانسانية تؤلف لحماية الضعفاء وإصلاح شأنهم والعناية بغير الصالح من أفراد النوع الانساني .

٣ — إن شعور الانسان يأبى عليه أن يعامل معاملة الحيوان الأعجم، وأن يوضع موضع النبات الذي تنقصه الحياة الكاملة ويموزه الحس والشعور التام؛ وكيف يرضى الانسان بالقضاء على حريته وتحديد حركاته وسكناته ؟ على أن شعوره في انه تحت التجربة، وأنها تجري عليه في وقت معين مما يكفى لفساد التجربة، وربما يؤدي إلى عكس المطلوب.

٤ — إن القوانين الاخلاقية والاجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان، فما يكون مباحا الآن قد لا يكون كذلك في عصر آخر، وقد لا يتفق الناس في كل زمان ومكان على المبادئ التي تتبع في اختيار الزوجين؛ وما يعتقده الجيل الحاضر مثلاً أعلى للإنسان الكامل قد لا يروق في نظر الأجيال الآتية .

ولكن على الرغم من هذه الاعتراضات، نرى أنه من الممكن زوال جميع هذه الصعوبات إذا ترك الاختيار للفرد يتصرف فيه بعقله وضميره لمصلحة نسله ولصالح النوع الانساني .

فلا يصح للعاقل أن يدير هذه الصعوبات التفاتاً جدياً، فيترأخى في امر اختيار زوجه على حسب ما ذكرنا .

والخلاصة أن جمهور العلماء لا يرون مانعاً مطلقاً من أن يجرؤوا على الانسان مثل تلك التجارب التي أجروها على النبات والحيوان، متبعين في ذلك طرقاً تلائم متزلة الانسان وتناسب مركزه في الحياة، فانه مهما علت متزله ومهما بلغ فضله فهو لا يزال يعتبر حلقة من الحلقات الحيوانية، ولذا نراه يتأثر بقوانين الوراثة مثلها .

على أن علوم متزله وتقدمه على غيره من الحيوانات يمكن أن يتخذ حجة عليه لاله، إذ انها تحتم عليه أن ينتفع بتلك القوانين بقدر ما يمكنه، وأن يتعلم دروساً مفيدة من الطبيعة التي أرادخالقها أن تخضع لقوانين متحدة .

فالانسان الذي هو الحيوان الوحيد الذي يكافح الطبيعة ويواصل الخطوات في سبيل التغلب

عليها بوسائل مدبرة، ويتسلط على غيره من الكائنات فيستخدمها لمصلحته ويصلح من شأنها لمنفعته، يجدر به أن يتدخل في شؤون نفسه لاصلاح نسله وتقويم نوعه، وإن اكبر وسيلة لذلك هي (التدخل في الزواج وضبط شؤونه) كما يقول افلاطون .

٣ - الوراثية والقانون : (١)

ويرى المفكرون أنه من الواجب أن ينظم القانون الأمور الزوجية فيحرم الزواج على من ليسوا أهلا له، وذلك بفحص من يريد الزواج فحسا طبييا، وإعطاء الصالح شهادة تخول له الزواج. وهناك فريق يعارض هذه الفكرة، ويستدل على بطلانها بأنها تؤدي حتما إلى شلل في حركة الزواج، وإلى قلة النسل وانتشار الدمار، ولكن هذه المضار إذا وقعت بالفعل ليست بشيء بالنسبة لما ينجم عن تنظيم الأمور الزوجية من الفوائد الجليلة .

أما مشكلة الضعفاء جسما أو عقلا، الذين يحرمون من الزواج، فسنعرض لها لمناسبة أخرى .
٤- تحريض القادرين على الزواج :

لا شك في أن الزواج واجب اجتماعي يقصد منه بقاء النوع الانساني، بل انه ضرورة اجتماعية تدعو إليه الطبيعة البشرية ويميل اليه الانسان بفطرته، ولكنه يكون أوجب على من اكتملت فيهم شروط الزواج، أى على الخالين من صفات الضعف الوراثية، السليمين من بعض العيوب: كاضطراب الأعصاب الناشئ عن إدمان السكر أو عن خلل في المجموعة العصبية، ومثل مظاهر العته والجنون وضعف العقل .

ولا ينبغي أن يكون الزوجان صغيرين في السن لم يبلغا حد النضوج الجسمي والعقلي، ولا كبيرين أدركهما الوهن والضعف، وفاتهما عهد الحيوية الجسمية والعقلية .

هذا وقد لاحظ علماء الاجتماع مع الأسف الشديد حقائق تدعو الى القلق على مستقبل النوع الانساني، وحصلوا على معلومات خطيرة، وشاهدوا مشاهدات محسوسة لتكررت وسارت في طريقها لأدت إلى « انتحار النوع » .

وأهم تلك الحقائق أن عدد المواليد بين الأسرات الضعيفة غير الصالحة في كثير من الممالك الأوربية، أكثر بكثير من نسبة عدد المواليد بين الأسرات القوية الصالحة للنتاج .

وهذه حقيقة مشاهدة في مجتمعنا المصري أيضاً، فنحن نرى أن كثيرا من الأقوياء القادرين يحجمون عن الزواج، أو لا يرغبون في النسل، أو يصابون بالعقم، هذا مع كون الضعفاء الفقراء يتناسلون ويكثر عدد نسلهم، فنرى بذلك أن قانون (دارون) قد انعكس، فبدلا من أن « تنازع البقاء » يؤدي إلى « بقاء الاصلح » وفناء غيره، نرى أن النظام الاجتماعي الحاضر مؤسس على قوانين صناعية تؤدي إلى بقاء العناصر الفاسدة وكثرة عددها، بينما العناصر الصالحة تلتهمها

الحروب أو تذهب ضحية العمل والجهاد الفكري، بالإضافة إلى أنها دائماً عرضة لتعدى العناصر الفاسدة عليها .

هذه ظاهرة لا نزاع فيها، وإذا استمرت قروناً فإنها تؤدي إلى القضاء على العناصر الصالحة، ولكي تتلافى هذا الخطر، نوجه إلى تلك العناصر الصالحة موعظة حسنة ونصيحة قديمة قديمة نصبح بها قادة الديانات السامية أمهم وأتباعهم وهي : «تناكحوا تكثروا» أو «زيدوا عددا واملثوا الأرض» .

وربما تقول هذه نصيحة مقبولة، ومن المعقول أن يعمل بها الصالحون للزواج القادرون عليه، ولكن ماذا تفعل بغيرهم؟

وللاجابة عن هذا السؤال تقول: إن هذه مشكلة عويصة من المشاكل الاجتماعية التي قتلها علماء الاجتماع بحثاً وذهبوا فيها مذاهب شتى، فمنهم من يقول بتحسين أحوال هؤلاء بقدر ما يمكن، بأن تخصص لهم خطط خاصة يسكنونها، ثم تحسن بيئاتهم ويعالجوا معالجة طبية واجتماعية وهكذا .

ومنهم من يقول بمنعهم من الزواج مطلقاً، لاسيما المصابين منهم بأمراض تناسلية أو عقلية مزمنة، ولكيلا يكون هناك مجال للشك في أسرهم، يرى هذا الفريق أنه من الواجب تعقيمهم وجعلهم غير قادرين على الانتاج .

ومن العلماء من يقول بوجود بترهم ليتخلص جسم النوع الانساني منهم، فهم بمثابة الجرائم التي هي مصدر الأوبئة، والتي يجب التخلص منها بكل الوسائل الممكنة .
وجهور العلماء لا يرون هذا الرأي الأخير لمخالفته للانسانية، ويفضلون الرأي الأول لأن تحسين حال الضعفاء يؤدي بالضرورة إلى تحسين حال الأقوياء .

وهناك أمور يفترضونها لتحسين أحوال الضعفاء أهمها : —

١- تحسين البيئة: ببناء المنازل الصحية وإنشاء الحدائق، وتسهيل وسائل التوطين، والحصول على المياه والاضاءة الكافية، والعناية بشؤون التربية وإصلاح طرقها .

٢- أن يتزوج الشخص الذي يرى في نفسه ضعفاً ما في ناحية يرغب فيها، بامرأة تكون قوية في تلك الناحية، وإن كانت ضعيفة في نواح أخرى، فالرجل الذي يأنس من نفسه اضطراباً في الأعصاب مثلاً يجدر به أن يقرن بسيدة تكون أعصابها قوية، ذلك لأن قوة الأم تذهب بضعف الأب، فيأتي النسل بريئاً من هذا العيب. أما الشخصان المصابان بعاهات متماثلة فننصح لها بعدم الاقتران كيلا ينجبا أولاداً مصابين بهذه العاهات، ولا يمكن للتربية علاجها اللهم إلا في أحوال نادرة حيث يمكن العلاج بعمليات جراحية .

٣- المهاجرة من بيئة إلى أخرى: لأن الانسان لا يمكنه أن يسبرغور قواه النفسية؛ ولا يمكنه

أن يتعرف أسرار مداركه، فمن الممكن أن ما خفى من هذه القوى واستتر بين تلك المدارك في بيئة من البيئات، يظهر في أخرى أشد ملائمة وأكثر مناسبة، وكم من رجال ساء حظهم وبلغ بهم الضعف مبلغه في مكان، فلما تركوه وضربوا في الأرض وانتقلوا إلى مكان آخر تحسنت أحوالهم، وتجددت قواهم، ونالوا شهرة واسعة، بعد أن كانوا خاملين في موطنهم الأصلي، وهذا بالطبع، راجع إلى وجود مؤثرات مشجعة، وفرص جذابة في البيئة الجديدة .

ومن هنا تظهر الفائدة من حث الناس على السفر والتنقل من مكان إلى آخر إذا ضاقت بهم سبل العيش في أوطانهم أو أبصروا في أنفسهم خموداً أو في قواهم هموداً .
ففي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام العلى متقلب

وبعد، فلاحاجة بنا الآن للتعمق في هذا البحث والاطناب في الكلام على هذه المشكلة الاجتماعية فالتنا بحمد الله وبفضل البقية الباقية من النفوذ الديني لم نصب بكثير من تلك الأمراض الاجتماعية الكبرى التي تشكو منها الامم الأوروبية، وإن أشد ما نخشى حصوله في المستقبل أن نصبح عبيداً للحضارة الزائفة وتقع في حبالها ونصير هدفاً لتلك السهام السامة التي يصوبها الأجانب نحونا ونحو أبنائنا، وهم آمنون على أنفسهم ماداموا يحتمون بنظام الامتيازات الوخيم العاقبة .
وإننا إن ننس ما في هذا المجتمع الذي نعيش فيه من أغلاط وشرور، فالتنا لن ننسى مما جلبته علينا الحضارة الأوروبية أمرين هما: الدعارة المصريح بها، وانتشار المواد السامة المسماة بالمخدرات إلى هذا الحد المريع .
واننا إذا لم تتلاف هذه الأخطار ونعجل بالدواء قبل استفحال الداء، ونعمل بالمثل القائل « منع وقوع الداء خير من علاجه » فالتنا ولا محالة واقعون فيما وقع فيه غيرنا، فيكثر بيننا البله والمعتوهون وضعاف العقول والمصابون بالسل والصرع والأمراض السرية التناسلية، ولا يلبث هؤلاء أن يتناسلوا وينموا وينقلوا أمراضهم إلى أضعاف عددهم بالوراثة أو بالعدوى الاجتماعية، فيملئوا الأرض أمراضاً بعد ما قربت أن تتلأ ضللاً وفساداً .
فعلى كل من لديه حمية قومية وغيره وطنية، أن يكافح هذه السموم ويصارع هذه الجرائم بكل ماله من قوة ونفوذ وحزم، فالتنا أعتقد تمام الاعتقاد انه كما أن الناس يفسدون الناس كذلك يمكنهم أن يصلحوا أنفسهم، ويصلحوا غيرهم متى وجدت عندهم العزيمة الصادقة واتبعوا الطرق الموصلة إلى الغرض المطلوب .

حامد عبد القادر

